



وعي شجاع حسن القحطاني

لأن أخطر ما تواجهه ليس ما يأتيك من الخارج، بل ما تسعح له أن يقيم داخلك.

في لحظة صفاء نادرة، حين تُقرأ خواتيم المصحف لا بوصفها ألقاظاً محفوظة، بل بوصفها مفاتيح نجاة، تكتشف دقة عجيبة في ترتيب القرآن، وكان السورتين الأخيرتين حُظتنا لتكونا خريطة النجاة الأخيرة للإنسان حين يضعف، لا حين يقوى.

سورة الفرقان تبدأ بنداء واحد، استعاذه واحدة، واضحة الاتجاه: {قل أعوذ برب الفلق}.

ثم يأتي التفصيل: {من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاتات في العقد، ومن شر حسد إذا حسد}.

كلها شرور تأتيك من الخارج؛ ليلاً يطبق، وحسدٌ يُرعى، وأذى يُدبر، وعقدٌ تُنفث. أنت هنا متلقٍ؛ قد تتأذى، وقد تصاب، لكنك في جوهرك لم تكون أصل الشر، بل ساحة مروره.

أما سورة الناس، فالأمر أخطر، وأعمق، وأدق: {قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس}.

ثلاث استعاذهات، لا من باب التكرار، بل من باب التدرج في السيطرة؛ ربُّ يربِّي، وملكٌ يحكم، وإلهٌ يعبد.

ثم يأتي الشر... لا من الخارج، بل من الداخل: {من شر الوسواس الخناس}.

ذلك الذي لا يهاجمك جهاراً، بل يهمس، ويزرع، ويلون، ثم يختفي. ليس ليلاً، ولا حسداً، ولا شحناً، بل فكرة.

فكرة تضعفك، وتشككك، وتبرر لك السقوط، وتمنك ألف سببٍ كي لا تنهاض.

وهنا يكتمل المعنى العميق: قبل أن تتهم الناس، اتهم نفسك، وقبل أن تشير مرة واحدة إلى الخارج، أشر إلى نفسك ثلاث مرات. ليس جلداً للذات، ولا قسوة على النفس، بل عدلٌ معها؛ لأن أخطر أنواع الهروب أن تبحث عن سبب سقوطك في الآخرين، بينما المفتاح كان في يدك منذ البداية.

في الفرقان، أنت تستهدف؛ وفي الناس، أنت تستدرج. شرور الخارج قد تصيبك، لكنها نادراً ما تُفسدك، أما شرور الداخل، فإن أفسدتك، فلن تحتاج بعدها إلى عدو.

ولهذا كانت سورة الناس أشد، رغم قصرها؛ لأنها تخاطب أخطر ساحة معركة: العقل والقلب. وهنا يعاد تعريف المسؤولية؛ ليس كل ألم سببه إنسان، وليس كل فشل مؤامرة، وليس كل تعثر ظلماً.

حين قيل: "لا تكون رهينة، ولا تكون ضحية"، فالكلام لم يكن تحفيزاً ساذجاً، بل تشديداً دقيناً؛ الرهينة ليست من تأذى، بل من بقي أسير الفكر، والضحية ليست من وقع عليه الأذى، بل من أقنع نفسه أن لا دور له في الخلاص.

القرآن لا يعلمك أن تنكر الشر، بل أن تضعه في حجمه الصحيح؛ أن تميّز بين أذى جاءك، ووسواس سكنك، بين جرح أحدهم الآخرون، وجراح أبقيته أنت مفتواً.

سورة الفرقان تعلّمك أن تلجأ إلى الله حين يهاجمك العالم، وسورة الناس تعلّمك أن تلجأ إلى الله حين تهاجمك نفسك. وحين تفهم هذا، تدرك أن النجاة ليست في الهروب من الأذى فقط، بل في لا تسمح له أن يتحول إلى فكرة تقودك، أو شعورٍ يسجنك، أو مبررٍ يشلّك.

فالاتهام الذكي يبدأ من الداخل، والتحرر الحقيقي يبدأ حين تراجع نفسك قبل أن تحاكم غيرك؛ تتغىظ، لا لأنك ضعيف، بل لأنك واعٍ، وترفض أن تكون رهينة وسوساس، أو ضحية تفسير، أو أسرى فكرة لم تختر.